بعض ملامح لاهوتٍ مُحيطيّ شرقيّ مُعاصر

الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ*

إذا ما أردنا، من خلال بحثنا في التقليد والحداثة، أن نستشفّ ملامح لاهوت محيطيّ شرقيّ معاصر، أمكَنّنا لجمع تلك الملامح حول محاور خمسة:

١ - النظرة الأنثربولوجيّة

مِن مُكتسبات الحداثة، منذ عصر النهضة الأوروبيّة في القرن السادس عشر، ركّزت على الإنسان في اتّجاهَيْن مُتكاملَيْن.

فمن جهة، يتميّز المرء بروح نقديّة، لا بل بروح استقلاليّة تجاه الطبيعة، والتاريخ، والسلطة الدينيّة والمدنيّة، والله والأمور الإيمانيّة والأخيريّة... هذا ما حدث بالفعل في الغرب طوال خمسة قرون.

ومن جهة أخرى، إنّ هذا الإنسان كائن يتكوّن من بعض المُقوّمات التي لم يُولِها خطابنا اللاهوتيّ والروحانيّ في الشرق - وفي الغرب أحيانًا - مكانتها المُستوجَبة. ومن بين هذه العناصر التي تستدعي رعاية خاصّة في الشرق:

العقل وقُدرته النقديّة - النظريّة والعمليّة - الجبّارة. فبإمكان الإنسان

(*) معلّم المبتدئين اليسوعيّين في إقليم الشرق الأدنى. أستاذ اللاهوت العقائديّ واللاهوت الروحيّ في كلّيّة العلوم الدينيّة بالكاكيّ - القاهرة.

أن يتساءل عن علاقته بالله، وعن علاقته بالدين والتقليد... أي عن كلّ ما كان يبدو في الماضي أمرًا بديهيًّا وموروثًا، وأصبح اليوم موضع درس أو نقد أو تساؤل أو شكّ. ويفتقر خطابنا اللاهوتيّ والروحيّ إلى مثل هذا العقل الناقد.

وهُناك الوجدان، لا بمعنى العواطف والأحاسيس - كما تتّسم بها طباعنا الشرقيّة - بل بالمعنى الذي حدّده القدّيس برنردس في القرون الوسطى (Affectus)، وعبّر عنه المُتصوّفون في عصر النهضة، وهو عنصر الشعور العميق والقلب المُضطرم حُبًّا لله، ومصدره الروح القدس.

وهناك الجسد الذي يُعبّر عن كيان الإنسان، فيَظهر به للآخرين، ويدخل من خلاله في علاقة بهم. فلم يعُد مفهوم الجسد سجنًا للنفس ومصدر تدنيس للروح - كما رأته أجيال من المسيحيّة، ولا سيّما الشرقيّة - بل أصبح يُنظر إليه على أنّه حضور الشخص للعالم وللبشر، بل ولله نفسه.

وهناك مُختلف الأبعاد السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة والحضاريّة...، وجميعها موضع علاقة الإنسان بالله، وليس البُعد الروحيّ فحسب.

وبموجز العبارة، فإنّ أيّ حديث ثيولوجيّ - أي لاهوتيّ - هو في الوقت نفسه حديث أنثرُبولوجيّ، بدون أيّ فصل مُمكن بينهما، بل إنّهما متضافران يُخصِب أحدهما الآخر.

وفي ما يختصُّ بالحديث الثيولوجيّ - في إطار اللاهوت المُحيطيّ الشرقيّ - فعليه أن يتأثّر بالحديث الأنثرُبولوجيّ في ما يتعلّق بتجسُّد الله، ليس من حيث التركيز على مُبادرة الله المجّانيّة عندما ظهر في الجسد وحسب، - وهذا ما شدّد عليه اللاهوت الشرقيّ خاصّة - بل أيضًا من حيث ما يترتّب على المُبادرة الإلهيّة هذه من إنسانيّة يسوع الذي أصبح مثلنا في كلّ شيء (ما عدا الخطيئة) وشاركنا في أوضاعنا البشريّة كلّها، بمنأى عن أيّ لون من ألوان «الظاهريّة» (Docétisme) التي تنكر حقيقة

التجسّد والإنسانيّة؛ وكذلك، على اللاهوت المحيطيّ الشرقيّ أن يركّز على تجسّد الإنسان في واقعه البشريّ، كما شدّد عليه اللاهوت الغربيّ خاصّة.

٢ - الحِسّ التاريخيّ

ومن مُكتسبات النظرة الأنثربولوجيّة هذه، اكتشاف معنى التاريخ. فقد سيطرت على خطابنا اللاهوتيّ الشرقيّ الروحُ العقائديّة، فتحجّر وفقد معنى التاريخ، مُتناميًا أنّ كلّ حديث عقائديّ أو لاهوتيّ أو أخلاقيّ... قد نشأ وتطوّر في مواقف وظُروف لاهوتيّة وكنسيّة وثقافيّة، بل ولغويّة... مُعيّنة، ولا بوجه مُطلق.

فالحسّ التاريخيّ يُميّز بين ما هو ثابت وما هو مُتغيّر، بين ما هو من باب المضمون الثابت وما هو من باب التعبير المُتغيّر، بين قُدسيّة التقليد الكنسيّ ونسبيّة التقاليد والعادات الكنسيّة...

وهذا ما عاشه بالفعل آباء الكنيسة إذ استخدموا لُغة عصرهم وفكره وفلسفته... فأبدعوا وصاغوا حديثًا لاهوتيًا يُناسب عصرهم، بل وأخصبوا بذلك ثقافة عصرهم وفكره.

أمّا نحن الشرقيّين المُعاصرين، فقد ورثنا خطابًا لاهوتيًا غريبًا عن عقليّتنا وحضارتنا، وعن تساؤلاتنا وحاجاتنا. لذلك، أصبح لِزامًا علينا أن نصوغ خطابنا اللاهوتيّ صياغةً تتميّز، في آنٍ معًا، بأنّها أمينة على تقليدنا، مُبدعةٌ ومُناسبةٌ عصرَنا وتطلّعاته. وإنّ جدليّة الأمانة/الإبداع تتجسّد في «التأويل» (Herméneutique)، حيث قراءة الماضي ومَصادره في ضوء الحاضر. فإنّما الأوقات الزمنيّة الثلاثة التي تُكوّن الزمان والتاريخ - الماضي والحاضر والمستقبل - نسبيّة، بدون أن يُسيطر أحدها على الآخرَين، كما يُعلّمنا إيّاه الحِسّ التاريخيّ.

٣ - مكانة اللاهوت الروحيّ

من ركائز التقليد الآبائيّ - ولا سيّما الشرقيّ - دمجُ الحديث

اللاهوتيّ والحديث الروحيّ، على خلاف ما توصّل إليه الحديث اللاهوتيّ الغربيّ - أقلّه قبل المجمع الڤاتيكانيّ الثاني - الذي فصل بينهما، إذ أولى العقلَ النقديّ والتحليليّ مكانةً مرموقة أفقدت الوجدانَ دوره في تكوين الحديث اللاهوتيّ.

أضف إلى ذلك ما أدّت إليه التيّارات الفكريّة والعلميّة والتكنولوجيّة... الإلحاديّة من فُقدان الحسّ الدينيّ والروحيّ في الحضارة الغربيّة. أمّا الشرق المسيحيّ - والإسلاميّ أيضًا - فقد حافظ أكثر من الغرب على هذا الحسّ، ولا سيّما على تعالي الله وتساميه، وعلى حُضوره وعمله في العالم، وعلى قيمة الرموز، ولا سيّما في الليتورجيا من جهة وفي الديانة الشعبيّة من جهة أخرى، وهذا ما ينبغي تنميته في اللاهوت المُحيطيّ.

٤ - عنصر التعدُّديّة

تتميّز المجتمعات الشرقيّة المعاصرة بأنّها تجمع بين مُختلف الأديان والطوائف، والحضارات والثقافات... وبالتالي، فلم يعُد من الممكن أن تسود فيها نظرةٌ أُحاديّة مطلقة، بل إنّ الآخرَ المُختلف هو عنصرٌ يكوِّن الهُويّة الشخصيّة. ومن ثمّ، ينبغي الاعتراف بالآخر، والتعايش معه، والحوار معه... الأمر الذي يؤثّر بلا ريب في الشخصيّة الذاتيّة، بل ويُبدّدها أحيانًا.

ومن هنا تنشأ إشكاليّة الهُويّة/الغيريّة في المجتمع ولدى الأفراد. وإن أهملنا دَرْسَها ومُعالجتها - نظريًّا وعمليًّا - أفسحنا في المجال للعنف، سواء أعنفًا فكريًّا كان أم دينيًّا أم سلطويًّا أم إرهابيًّا، كما تشهده الآن مُختلف المجتمعات البشريّة، ولا سيّما الشرقيّة منها.

٥ - أهمّيّة الجدليّة

إنّ قضيّة التقليد/الحداثة قد تؤدّي - في داخل الشخص، أو في

صميم المجتمع المدنيّ أو الدينيّ - إلى تصادم القُطبَيْن، أو رفض أحدهما، أو إلى الخُضوع لأحدهما، أو إلى وجودهما جنبًا إلى جنب وجودًا انفصاميًّا... ثُمَّ إنّ بعضهم قد يتحمّس للتقليد لتركيزه على الماضي الثابت، وبعضهم للحداثة لتركيزها على الحاضر المُتغيِّر، وبعضهم لأُسطورة المُستقبل وتقدُّم الإنسان اللانهائيّ... إنَّ جميع هذه المواقف لا يقبلها الفكر النقديّ الرزين.

أمّا الموقف الصائب، فإنّه يتّجه إلى الاتّزان بين القطبَيْن، وإلى محاورة واحدهما الآخر، وتفاعلهما، وتكاملهما؛ وكذلك إلى التصحيح والإخصاب المُتبادلَيْن، في عمليّة جدليّة وفي مسيرة دمج ونموّ ديناميّة مُستديمة.

هذا، وإن ركّزنا - نحن الشرقيِّين الكاثوليك - أكثر من غيرنا على الحداثة، فبفضل ارتباطنا بالكنيسة الجامعة، من دون تناسي شرقيّتنا المرتبطة - أكثر من غيرها - بالتقليد.

وما يُقال من ضرورة الجدليّة في قضيّة التقليد/الحداثة، يُقال في قضايا أُخرى أيضًا: المجال الروحيّ/الجسديّ، العقليّ/الوجدانيّ، الروحيّ/الزمنيّ، المحلّيّ/الجامعيّ، الدنيا/الآخرة، الهُويّة/الغيريّة...، وفي نهاية المطاف الله/الإنسان في ضوء سرّ التجسُّد. إنَّ الجدليّة تتجاوز المنهج العلميّ لتُصبح موقفًا حياتيًّا ولاهوتيًّا.

* * *

تلك هي أهمّ ملامح لاهوت شرقيّ مُحيطيّ مُعاصر. وإن لم تُحلّلها الندوة جميعها، ولم تولِها جميعَها القدرَ الكافي من البحث، إلاّ أنّها تظلُّ خُطوطًا عريضة وكذلك اتّجاهًا أساسيًّا في سبيل فكر لاهوتيّ وروحيّ وأخلاقيّ ورعويّ وكنسيّ... في شرقنا المسيحيّ العربيّ.

من آخر منشورات دار المشرق